مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد3، العدد5، (جانفي2015) EISSN : 2600-6405

جوانب من العلاقات التونسية الأوربية في عهد حمودة باشا (1782 – 1814م)

أ/ رزيقة محمدي
جامعة الجزائر-2-

مقدمة :

إن تخصيص دراسة مستقلة بذاتها حول العلاقات التي كانت بين إيالة تونس ومختلف الدول الأوربية الغاية منها هو إبراز مدى تأثيرها على السياسة الداخلية للإيالة والرغبة في تحسين أوضاعها . وبالمقابل رفع تحديات على المستوى الخارجي وإبراز مكانة الإيالة في ساحة العلاقات الخارجية، وكيف كان باستطاعة الباي حمودة باشا أن يُبرز مدى إمكانية البلاد في حل مشاكلها وتحقيق انتصارات خارجية دون تدخل أجنبي.

و لتدعيم سياسته الخارجية و إبراز وجود الإيالة بين الدول انتهج الباي عدّة أساليب:

أولا: استعماله القوة في علاقاته السياسية الخارجية والتي كانت ترمي إلى إبراز هيبة الدولة و تحريرها من التسلط الخارجي وهذا ما سنتطرق إليه في دراستنا في مختلف الحروب التي خاضها ضد بعض الدول منها: حربه ضد البندقية .

ثانيا: تشجيعه للتجارة الخارجية وهذا ما يبرزه تعدّد العلاقات التجارية مع الكثير من الدول.

ثالثا: إلى الجانب التجارة أراد الباي أن يُنمي علاقاته الخارجية عن طريق الصداقة كسب وِد الدول التي له معها مصالح وهذا ما سنبرزه في العلاقات الدبلوماسية.

كانت للباي علاقات مع الكثير من الدول الأوربية منها التجارية والسياسية هذه الأخيرة التي تأرجحت بين الحرب والسلم، لكن مجمل هدف تلك العلاقات هو محاولة الباي إبراز مكانة تونس لتكون لها كلمتها بين الدول، هذا من جهة ومن جهة أخرى تحرير تونس من التبعية والتسلط .

كل هذه العزيمة اكسب الدولة قوة فقد اعترفت الكثير من الدول بتونس وأصبحت تدفع لها الإتاوات و تقدم لها الهدايا، و كثيرا ما كانت تونس تعلن عليها الحرب في حالة تأخرها عن دفعها.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

اعتبر الباي حمودة أن علاقاته مع الدول الأوربية هي في أغلبها في حالة حرب معه[1] ولا ينتهي ذلك إلاّ بعد عقد معاهدة صداقة وسلام للاعتراف بالتفوق التونسي، فكانت الدول تتسابق لربط علاقات ود مع إيالة تونس .

أ- العلاقات مع فرنسا:

أ-1- العلاقات السياسية :

تعتبر فرنسا من بين ابرز الدول الأوربية التي كانت لها علاقات مع إيالة تونس ونستطيع القول عنها أنها مهمة بين البلدين ، بقدر أهمية امتيازات فرنسا في تونس.

والحديث عن العلاقات بين البلدين يدفعنا لذكر شخصيتين لعبتا دورا كبيرا في توجيه العلاقات بين حكومة فرنسا وإيالة تونس، وهما الوزيرين "**مصطفى خوجة**"[2] و"**يوسف صاحب الطابع**" [3]. فبالنسبة للوزير الأول فقد كان له دورا كبيرا في توجيه وتقوية العلاقات بين البلدين ، إذ أغلب المعاملات كانت تتم عن طريقه، وهذا ما يثبته ظهور اسمه في آخر كل الاتفاقيات التي كانت تُبرم مع شركة إفريقيا الملكية باعتباره الوزير الأول ، والمفاوض الرسمي باسم إيالة تونس[4].

بالإضافة إلى ذلك نجد أن هذين الوزيرين كانا يحظيان بتقدير من طرف الدول الأجنبية ، والدليل على ذلك ، الهدايا التي كانت تقدم لهما أثناء عقد معاهدات التفاوض،كالتي أبرمت مع إسبانيا سنة 1791م ، حيث خصت 8.000 قرش للوزير الأول "**مصطفى خوجة**" ، و 2.000 قرش "**لصاحب الطابع**"، كما قامت الولايات المتحدة الأمريكية أثناء عقد الصلح مع إيالة تونس سنة 1799م بتخصيص مبلغ قدره 8.000 دولار[5]"**ليوسف صاحب الطابع**" .

هذا الأخير الذي حلّ محل "**الوزير مصطفى خوجة**" ، وأصبح له الدور الكبير في التوجيه والتحكم في العلاقات بين تونس وفرنسا. وذلك راجع إلى تأثيره الكبير على آراء "**حمودة باشا**" ، وبالتالي فقد استطاع بنفوذه أن يهدد مصالح الفرنسيين في تونس، وهذا ما تُطلعنا عليه جلّ مراسلات القنصل الفرنسي "**ديفواز** " **DEVOIZ** " خلال منتصف التسعينات من القرن 18م[6].

لقد حاول"**حمودة باشا**" منذ توليه الحكم أن يحافظ على العلاقات الودية التي كانت تربط الدولتين ففي رسالة مؤرخة في جويلية 1782م إلى الملك الفرنسي "**لويس**

السادس عشر"، عبّر له فيها أنه سيعمل للحفاظ على المعاهدات المبرمة وأنه سيهتم بسلامة التجارة الفرنسية[7].

ولهذا فقد حاولتا تونس وفرنسا أن تتفقا في أن يكون هناك احترام و التزام للبنود التي تمّ المصادقة عليها في المعاهدات السابقة، وكان ذلك من خلال المعاهدة التي أبرمت في قصر الباردو بين القنصل "**ديفواز" DEVOIZE** " والباي **"حمودة باشا"** يوم 25 ماي 1795م[8].

لكن العلاقات لم تستمر على وتيرة السلم، بل تغيرت وانتقض الصلح في سنة 1798م، وبالتالي ساءت العلاقات بين فرنسا وإيالة تونس، وكان سبب ذلك حملة نابليون على مصر. وفي خِضم تلك الأحداث – حملة نابليون على مصر- اضطرت الإيالات التابعة للدولة العثمانية الانصياع لأوامر السلطان العثماني والمتمثلة في قطع العلاقات مع فرنسا والانضمام إلى الأسطول العثماني.

وللمحافظة على عرشه لم يكن أمام الباي خيار آخر سوى الاستجابة لأوامر السلطان[9]،« **فامتثل الأمر وقطع الخلطة**[10] » . لكن الصلح عاد من جديد بين الدولتين وكان ذلك في مارس 1802م[11]، بعد خروج القوات الفرنسية من مصر[12] .

والجدير بالإشارة أن فرنسا استطاعت الحصول على امتيازات وتنازلات من طرف الباي ، حيث كان يرضخ لقبول الكثير من مطالبها. كقبوله الاعتراف بعلم الجمهورية الإيطالية الجديد. فبالرغم من إلحاح الباي على أنه لا يمكن الاعتراف بعلم الجمهورية الإيطالية إلاّ بعد عقد معاهدة معها، لكن القنصل **ديفواز"DEVOIZE** " استطاع أن يضغط على الباي ، ويقنعه أنه لا ضرورة لذلك ما دام **"نابليون بونابرت"** هو من يترأس جمهورية إيطاليا ، وبالتالي فهي تابعة لفرنسا ويجب أن تحظى بنفس الامتيازات التي تتمتع بها فرنسا. وبعد ضغط طويل من طرف القنصل اعترف حمودة باشا بعلم الجمهورية الإيطالية وطلب أن تحترم سفنها في البحر والتعامل معها على أساس دولة صديقة.كما ضغطت على الباي للإعلان سنة 1804م على ضرورة احترام دويلة الفاتيكان لأنها هي الأخرى وضعت تحت حماية **"نابليون بونابرت"**[13].

وزادت العلاقات بين البلدين متانة بفضل التمثيل الدبلوماسي الذي كان بين الطرفين بواسطة السفراء والمبعوثين في العديد من المناسبات ، أهمها سفارة "**محمد خوجة"** في جانفي 1797م ،التي كانت ترمي إلى تقوية العلاقات بين البلدين والمطالبة بإرجاع القنصل"**ديفواز"DEVOIZE** " إلى منصبه بالإيالة[14]، وقد نجح **"محمد خوجة"** في سفارته وعاد محملا بالهدايا[15] .

حرص **"حمودة باشا"** كثيرا على معاملة الرعايا الفرنسيين معاملة حسنة ، فبالرغم من المناوشات التي حدثت بين إيالة تونس وفرنسا بسبب حربها على مصر، إلاّ أنه وطوال تلك المدة ورغم بقاء الرعايا الفرنسيين في تونس بدون قنصل ، إلاّ أنهم كانوا يتمتعون بالأمان والاستقرار حتى أصبح بعضهم يقول:« **نحن بلا قنصل أحسن حالا من وجود القنصل**[16] » ، ويذكر **"ابن أبي الضياف"** أنه عندما قرر القنصل **"ديفواز"DEVOIZE**"الرحيل قال له **"حمودة باشا"**:« ...**إن شئت السفر فلك ذلك، ورعايا الفرنسيين في أمان الصلح الذي دخلوا به، و أنا الحامي لإتمام عهدته ، حتى يجمعوا أموالهم ويستوفوا ما لهم وما عليهم من أسباب متاجرهم.**[17] » .

بالإضافة إلى حسن المعاملة التي كان يحظى بها الفرنسيون في تونس ، فقد ظهرت في معاملة الباي نوع من الليونة حيث أصبح يُفدي ويُطلق صراح أسراها دون شروط قاسية ، أو ضرائب باهظة كما كان يفعل مع بقية الدول الأجنبية .إذ بمقتضى البند الثامن من الاتفاقية التي أبرمت سنة 1802م الذي ينص على:« **إن الأسرى الذين هم يتبعون أصلا إلى أحد البلدان والممالك التي فتحت من طرف فرنسا أو استولت فرنسا عليها وهم في الوقت الحاضر أسرى في يد التونسيين، يتم خلاء سبيلهم عندما يتم استردادهم ... إلاّ من اسر منهم و هو في خدمة دولة معادية لإيالة تونس وأوجاقها فإنه لا يخلى سبيله بل يبقى أسيرا في أيدي التونسيين** » [18].

كما حظيت فرنسا بموجب تلك المعاهدة شرف قبول الباي **"حمودة"** رفع العلم الفرنسي الجديد [19]رسميا فوق دار القنصلية الفرنسية بتونس، دون تقديم أية هدية أو إتاوة لتونس. وهذا ما لم تكن تجري عليه العادة ، في الوقت الذي لم يسمح فيه الباي للدانمرك وأمريكا رفع علمهما في سماء تونس إلاّ بعد دفع مبلغ باهض.[20]

2- العلاقات التجارية :

مهدت العلاقات التجارية التي كانت بين إيالة تونس وحكومة فرنسا في عهد **"علي باي"**(1759-1782م) والتي كانت توحي بمجملها إلى العلاقات التجارية المتينة والمربحة ، بأن تكون أكثر نشاطا في عهد **"حمودة باشا "** والمواصلة على نفس الوتيرة.

جعل **"علي باي"** من العلاقات التجارية مع فرنسا ، متميزة عن باقي الدول الأوربية، حيث ميزهم بحق فتح وكالة تجارية في بنزرت سنة 1768م[21]، واعترف لهم بصيد المرجان بكل حرية في السواحل التونسية ، وذلك بموجب المعاهدة التي عقدت بين علي باي والقنصل الفرنسي **"دي روشيه "DE ROCHIE"**[22].

استمر حمودة باشا في علاقاته مع فرنسا على نفس الوتيرة التي كانت عليها في عهد والده ، وهذا ما تبرزه المراسلة التي قام بتوجيهها بمناسبة توليه العرش إلى ملك فرنسا "**لويس السادس عشر**"، يُعبّر فيها عن مدى العناية التي يوليها للحفاظ عن المعاهدات المبرمة بين البلدين ، ومدى اهتمامه بسلامة التجارة الفرنسية بإيالته . وهذا ما يفسر تجديد المعاهدة التي تتكفل بحماية امتياز صيد المرجان "شركة إفريقيا الملكية الفرنسية"، وكان ذلك قبيل نهاية سنة 1782م[23]. بالإضافة إلى تلك الامتيازات فقد كانت تتمتع فرنسا بامتيازات أخرى نستطيع القول عنها أنها استثنائية ، وهي حصولها على تخفيضات جمركية حيث تدفع نسبة3% مقابل 5% تدفعه بقية الدول الأجنبية[24].

أما بالنسبة للمبادلات التجارية فقد كانت فرنسا تتحكم في تجارة تونس مع بعض الدول مثل الإسبان والبرتغال، لأن هذه الأخيرة بضائعها تمُر أولا على مرسيليا لتصل إلى تونس[25]. فهناك مصادر تذكر أن فرنسا استحوذت على نسبة نصف معاملات صادرات تونس، ونسبة تفوق الثلثين من الواردات[26]، إلى درجة أنها لم تترك مجالا للدول الأخرى[27]، وهذا ما يوضحه الجدول التالي الذي يُبين نسبة المعاملات نقدا بين تونس و فرنسا وبقية الدول الأجنبية، وهي مأخوذة من الحسابات التي قدمها القنصل "**دي شتوناف**" **DE CHATAUNEUF** إلى حكومته سنة 1787م[28]. وأهم المواد التي كانت تصدر وتستورد بين ايالة تونس وفرنسا في الفترة الممتدة (1786-1789م) . يمكن أن نستعرضها في الجدول التالي[29]:

صادرات تونس إلى فرنسا		واردات تونس من فرنسا	
الزيت	6.962.000 ليرة	القهوة	106.000 ليرة
الصوف	3.780.000 ليرة	السكر	108.000 ليرة
القمح	1.127.000 ليرة	خردوات	103.000 ليرة
الجلود	688.000 ليرة	أقمشة	38.000 ليرة
الشمع	205.000 ليرة	أدوات الزينة	105.000 ليرة
الفول	552.000 ليرة	الحديد	32.000 ليرة
الإسفنج	100.00 ليرة	الخشب	45.000 ليرة
التمور	42.000 ليرة	الحرير	26.000 ليرة

والجدير بالإشارة أن المبدلات التجارية بين الدولتين شهدت تراجعا أثناء الثورة الفرنسية (1789- 1798م)، مما أضر بمصالح فرنسا التجارية لصالح الدول الأوربية

الأخرى (مالطة، ليفورنا، بريطانيا). لذا حاولت فرنسا إصلاح الوضع ، إلى درجة أنها عرضت على الباي بناء ميناء جديد بتونس على حسابها الخاص لكنه رفض العرض[30]. وبعد معاهدة 1795م، عادت المؤسسات التجارية الفرنسية لنشاطها بتونس لكن بدرجة أقل[31]. وحاولت فرنسا مرة أخرى استعادة مكانتها التجارية بعد عقد هدنة **"آميان"** 1802م مع إنجلترا [32]، حيث أبدت استعدادها لشراء كل ما تصدره تونس من الحبوب، لكن دون جدوى فقد تحولت تجارة الإيالة التونسية من مرسيليا إلى جزيرة مالطة مع بداية القرن 19م[33] .

وعليه فقد انخفضت صادرات تونس نحو مرسيليا بسبب تذبذب المحاصيل الزراعية بتونس، إضافة إلى قلة الطلب من مرسيليا لبعض المواد خاصة الزيت، حيث نجد أن المبلغ المدفوع لشراء هاتين المادتين بلغ 3.251520 ليرة سنة 1788م، ثم انخفض المبلغ إلى 3.97800 ليرة سنة 1789م، بسبب قلة الكمية التي حولت إلى مرسيليا، وأيضا سجل انخفاض بالنسبة لمادتي الصوف والقمح[34].

أما الواردات التونسية، فقد تمثلت في جلب الصوف الإسباني، الذي ارتفع الطلب عليه داخل الإيالة من 27.5 % من مجموع الواردات سنة 1788م، إلى 34.1 % سنة 1789م [35].

كما كان ملوك فرنسا وإلى غاية أواخر القرن 18م يرسلون إلى إيالة تونس مختصين لشراء الجياد الأصيلة، وبعض الحيوانات الأليفة مثل : الحمام بمختلف أنواعه ، الدجاج ، الديك ، السلحفاة[36].

ب-العلاقات مع بريطانيا:

ب-1- العلاقات السياسية :

كانت العلاقة بين البلدين قائمة على أساس المصالح، لأن بريطانيا وفرنسا كانتا أثناء فترة حكم حمودة باشا في صراع متواصل، وبالتالي لم يكن أمام الباي سوى التزام الحياد و اغتنام الظروف لصالحه. حيث كتب القنصل البريطاني **"ماجرا "MAGRA** إلى حكومته سنة 1800م يقول:« ... **يا جلالة الملك تستطيعون أن تعتمدوا على عهدي وتوكيدي بأن كل إيمان وكل ثقة هما على نهايتهما مع هذا الباي. و أنه يدير سياسته الخارجية فقط حسب الظروف والحالات التي يستوجبها الوقت الراهن للأحداث...**[37]» .

ب-2-العلاقات التجارية:

قبل البدء في استعراض العلاقات التجارية التي كانت تجمع البلدين، تجدر بنا الإشارة إلى أن بريطانيا إن صح التعبير، لم ترق علاقاتها التجارية في بداية فترة حكم حمودة باشا، إلى القدر الذي كانت عليه فرنسا. وقد دَوَن التاجر "**مجيل** "MAGGIL "الذي زار تونس سنة 1808م ، وقال:« **إن تجار الانجليز يجهلون ولا فكرة لديهم عن التجارة القائمة في إيالات البربر، على عكس فرنسا التي كانت لها ثقافة عالية في التعامل معها، حيث جعلت من تونس سوقا لترويج منتجاتها** [38] » .

لكن استطاعت بريطانيا أن تُقوي تجارتها مع إيالة تونس منذ سنة 1790م من خلال الحصار الذي ضربته على فرنسا ، حيث أصبح من الصعب على السفن الفرنسية التنقل في البحر المتوسط وهذا الوضع أصبح يهدد بدوره التجارة الفرنسية بإيالة تونس. وهذا ما عبر عنه القنصل الفرنسي "**بيون** "BILLION" في تقريره الذي أرسله إلى حكومة فرنسا سنة 1811م، يخبرهم بأن التجارة الفرنسية- التونسية الظاهر عليها بأنها ستتوقف في القريب العاجل.[39]

لم يكن أمام حمودة باشا سوى التجاوب مع رغبة بريطانيا في تمتين العلاقات التجارية، بالإضافة إلى أن الباي حمودة كان يرغب في إيجاد بديلا عن السوق الفرنسية. فقام بمنحها تخفيض في قيمة الضرائب وهي 3% مقابل 5% تدفعها الدول الأجنبية الأخرى[40] .

استمر التبادل التجاري بين حكومة بريطانيا وإيالة تونس بشكل كبير حيث أصبحت تُشحن كميات كبيرة من القمح عن طريق مالطة إلى بريطانيا [41]. وما يثبت قوة العلاقات التجارية بين البلدين ، ما حدث سنة 1801م، حيث أنه بالرغم من النقص الذي كانت تعاني منه إيالة تونس في منتوج الحبوب، إلا أن الباي حمودة قام بتزويد بريطانيا بكميات منها من مخازنه الخاصة .مقابل أن تزوده بريطانيا بأسلحة حربية ومدافع [42]. وتشير الإحصائيات أنه في سنتي (1810-1811م) تم وصول 67 سفينة بريطانية محملة بمختلف المنتوجات إلى موانئ تونس موزعة كالآتي:

الميناء	عدد السفن	الميناء	عدد السفن
تونس	50	صفاقس	5
صفاقس	0	المنستير	1

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

في المقابل في نفس السنة استقبلت موانئ تونس سوى 14 سفينة فرنسية، وهذا ما يدل على تقلص العلاقات بين فرنسا وتونس لصالح بريطانيا بنسبة 28.7 % [43].

أما إيالة تونس بدورها فتستورد العديد من المنتجات البريطانية كالقهوة، والسكر، والحرير، ومعدن الرصاص، الذي يقول عنه **مجيل"MAGGIL** " أن تونس تفضله عن بقية الدول الأخرى. ويضيف أن تونس تستهلك هذه المادة بكثرة في فترات الحرب أكثر من فترات السلم . ونظرا لكثرة واردات تونس من بريطانيا أصبح يقال عن تونس أنها أضحت سوقا لاستهلاك المنتجات البريطانية[44].

وما تجدر الإشارة إليه أن بريطانيا ، حاولت في الكثير من المرات الوقوف في وجه التجارة التونسية ومحاولة عرقلتها. حيث كانت تمنع التجار التونسيين من بيع بضائعهم في مالطة ، بل وحتى أنها عرقلت تجارة تونس في موانئ فرنسا وإيطاليا. وكان الهدف من وراء كل ذلك إبعاد التجار التونسيين من الأسواق الأوربية[45] .

ج- العلاقات مع إسبانيا:

ج-1- العلاقات السياسية :

يعود سبب توتر العلاقات بين إسبانيا وتونس خلال القرن 18م ، إلى حالة الحرب والتنافس الذي كان بين إسبانيا من جهة والإمبراطورية العثمانية وإيالاتها في المغرب من جهة أخرى . من أجل السيطرة على السيادة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهذا ما دفع إسبانيا إلى إبرام سلسلة من المعاهدات مع دول المغرب في الفترة الممتدة ما بين (1775-1791م) ، وكانت إيالة تونس من بين الدول التي حاولت إسبانيا أن تعقد صلحا معها [46]، وكانت تميل إلى حل المشاكل الخارجية بالطرق السلمية وقد عملت الكثير للقضاء على القرصنة البحرية التي عطلت مصالحها[47].

لكن في أواخر القرن 18م ظهر توجه جديد في سياسة إسبانيا، وهو توجه يدعو إلى عقد سلسلة من المعاهدات ، مع الإيالات المغاربية العثمانية والمغرب الأقصى، كانت آخرها مع إيالة تونس سنة 1791م. هذا التوجه الجديد الذي كان يهدف إلى الحد من نشاط القرصنة المغاربية التي عطلت مصالحها التجارية [48].

ظهر هذا التغير بعد تولي الوزير الأول **"دي فلوريدا بلانكا" "Floridablanca"** (1777م - 1792م). في عهد الملك" **كارلوس الثالث"CarlosIII"**وابنه**"كارلوس الرابع " Carlos IV"**،حيث كان يميل لسياسة المهادنة، فحقق السلام مع المغرب الأقصى في عهد السلطان **"محمد بن عبد الله"** سنة 1782م ، ومعاهدة مع الدولة العثمانية في نفس

السنة، ومع طرابلس سنة 1784م، ومع الجزائر سنة 1786م. وبقيت تونس، فطالب الإسبان من داي الجزائر **"محمد بن عثمان باشا"** (1766-1791م) التوسط لإبرام الصلح معها[49].

فقام الكونت **"فلوريدا بلانكا"Floridablanca"** بإرسال رسالة إلى حسن وكيل الحرج سنة 1785م ، يخبره فيها أن الملك الإسباني-**كارلوس الثالث-"CarlosIII "** يطلب منه أن يبذل كل جهده لإبرام هذا الصلح[50]. وفي رسالة أخرى من مصطفى خوجة إلى حسن وكيل الحرج في 20 جانفي 1786م ، الذي أبدى هو الآخر استعداد تونس لعقد السلام مع إسبانيا، ويخبره فيها أيضا أنه سمع وصول المبعوث الإسباني **"دي سبيي "Expilly"**، إلى الجزائر للتفاوض من أجل الصلح بين الجزائر وإسبانيا، وأنه يتمنى قدومه إلى تونس لنفس الغرض [51].

تم إيفاد **"بازليني Baselini "** إلى ايالة تونس قادما من ايالة الجزائر في 3 فيفري 1786م، للتفاوض مع الباي حمودة، وتمكن من عقد هدنة مدتها ستة أشهر مع انتظار وصول المبعوث الرسمي القائم بشؤون إسبانيا . وهو القنصل **"دون خايمي "سولار" JAIME SOLER "** إلى تونس في يوم 3 فيفري 1786م.

نظرا لإلحاح إسبانيا على عقد المعاهدة، فقد قَبل حمودة باشا بالمفاوض **"سولار"" .J SOLER "** كممثل رسمي للمفاوضات محاولا استغلال الفرصة لفرض شروطه على إسبانيا والمتمثلة في :

- يجب أن يكون مضمون بنود المعاهدة ،شبيهة ببنود المعاهدة التي أبرمت مع إيالة الجزائر.
- التثبت المسبق للهدايا السنوية التي يرسلها البلاط الاسباني إلى وصاية العرش بتونس .
- ضبط الرسوم الجمركية للتجارة الإسبانية بالموانئ التونسية [52].

كانت مشكلة الديون التي تسبب فيها القنصل **"سيقي" segui"** من بين الأسباب التي عكرت العلاقات بين الحكومتين . حيث قام هذا الأخير بقرض مبلغ مالي قدره 400 ألف قرش من بعض أثرياء تونس[53]، الذين إشتكوا للباي بخصوص تأخر الدفع. وفي خضم هذه الأحداث تم عزل **"سيقي"segui"** سنة 1708م، وحلّ مكانه القنصل **" أرنولدو سولير" Arnoldo Soler"**، الذي أعلم حكومته بالمشكلة التي أحدثتها ديون **"سيقي""segui"** بتونس [54] .

وقد أعرب عن ذلك في رسالة بعثها إلى حكومته يبرز فيها عن العواقب التي يمكن أن تنجم من جراء التأخر في تسديد الديون قائلا:« ...**إن الباي لاينظر إلاّ لفائدته وأغراضه**

الشخصية والهدف الذي يريد أن يصل إليه، وكان دائما يقلقني بشان تعويض الأموال التي اقترضها سيقي... ولا أخفي عليكم إذا لم تدفعوا 40.000 قرش فقد تعود عليكم بعو اقب وخيمة على تجارتكم البحرية [55] » .

لكن شكاوي الباي لم تجد نفعا ، وهذا ما دفعه إلى إصدار أوامر بالتعدي على السفن والسواحل الإسبانية. ولم يكن في صالح إسبانيا خوض غمار الحرب ضد إيالة تونس، فكلفت "**دون أرنولدو سولار" Arnoldo Soler** أن يشرع في دراسة ديون سلفه "**سيقي"segui "** والتمهيد لتسديدها.

فالتزمت الحكومة الإسبانية في سبتمبر سنة 1809م ، بتسديد جزء من الدين بمبلغ قدره 4.000 قرش. كما أعفت السلطات الإسبانية التجار التونسيين المقيمين هناك من الضرائب الجمركية كلما قاموا باستيراد الأصواف الإسبانية ويظل هذا الإعفاء ساري المفعول إلى أن تتم تغطية قيمة الديون [56].

والجدير بالذكر أنه لا نستطيع أن نجهل دور المعاهدة السلمية التي عقدت بين حكومة إسبانيا وإيالة تونس سنة 1791م في توجيه العلاقات بين البلدين إلى طريق الود والسلم. فقد أثبتت الكثير من المراسلات علاقة الصداقة التي كانت تجمع البلدين في عهد الباي حمودة باشا.

ففي سنة 1808م كتب القنصل الإسباني إلى حكومته يقول:« ... **وقد سلمت في 14 ماي إلى حكومة الباي(حمودة باشا) المرسوم المتعلق باستقالة الملك شارل الرابع وتولي الملك دون فيرديناند السابع، الذي طلب من الباي أن يبقي علاقة الصداقة بين الدولتين** » [57].

كما توجد مراسلات أخرى نشرها الأستاذ **"نور الدين الحلاوي"** [58]، فمن خلال مضمونها وجدنا أن حكومة إسبانيا كانت تسعى إلى ربط علاقات ودية مع إيالة تونس، والدليل على ذلك عبارات المودة والصداقة .

وتظهر رغبة ملك إسبانيا في الحفاظ على تلك العلاقات في العبارات التالية :« ... **في نفس الوقت الذي أبعث لكم بهذه الهدية عربون مودتي لكم وحرصي على تمتين الصداقة والسلم اللذين يربطنا بكم وبمملكتكم** » [59]، « ...**إن الثقة والصداقة المتينة التي أكنها لكم تعبر عن صدقي...**» [60]وغيرها من العبارات الأخرى التي يطول بنا الأمر إذا ذكرناها. .

وتشير أيضا الرسائل نفسها، إلى القناصل الذين كانوا يُمثلون حكومة إسبانيا بإيالة تونس والدور الدبلوماسي الذي قاموا به بداية من سنة 1791م، أول تمثيل رسمي من طرف القنصل **"دون بيدرو سوخيتا" Pedro suchita** " الذي عينه الملك إسبانيا **"دون كارلوس الرابع" DON CARLOSVI"** ممثلا رسميا لاسبانيا في تونس، وذلك من خلال الرسالة التي بعث بها ملك اسبانيا "**دون كارلوس الرابع**" إلى حمودة باشا في أكتوبر سنة 1792م :« ...**يسعدني أن أبعث لكم بهذه الرسالة أعلمكم فيها بأني قررت تسمية دون بيدرو سوخيتا، الذي شارك في مفاوضات السلم، بوصفه قنصلا عاما مكلفا بشؤوننا في مملكتكم...**[61] » .

ثم تولى أمور حكومة إسبانيا من بعده **"دون خايمي سولار"JAIME SOLER** " الذي لا تذكر الرسائل التي بحوزتنا تاريخ تعيينه كخلف" **لبيدرو سوخيتا"Pedro suchita** " بينما يوجد تاريخ وفاته الذي كان سنة 1798م . وعين مكانه **"دون مانويل بنتورا بوثاران"PEINTURA BOTHA REIN"** [62].

لكنه لم يلتحق بمنصبه لأنه كُلف بإدارة الشؤون العامة لمدينة مالطة فقام الملك بتعويضه بـ**"دون خوسي نوفيرا NOVERA"** سنة 1802م [63]. ثم تعيّن سنة 1804م قنصل آخر وهو السيد **"سيقي"segui"** هذا الأخير الذي استطاع أن يحسّن العلاقات بين البلدين، وكان ذلك بعد إهدائه للباي 8.000 قرش إسباني وشراعين زوّد كل واحد منهما 26 مدفع . بالإضافة إلى قبول الباي حمودة للهدايا التي رفضها من طرف القنصل السابق **"دون بوزاران"**،كما تعهد الباي بألاّ يوجه إلى إسبانيا أية مطالب أخرى. لكنه ورط حكومته في مشكلة الديون ، وهذا ما سيدفع حكومة إسبانيا إلى عزل القنصل **"سيقي"segui"** وتعيين "**دون أرنولدو سولار" SOLER DON ARNOLDO"** الذي شرع في دراسة ديون سلفه: « ... **لقد كلفنا قنصلنا العام- دون أرنولدو سولار- بأن يعلمكم بكل التفاصيل ويطمئنكم على حسن نو ايانا لمواصلة العلاقات الودية والسلمية وكذلك لتسوية المسائل المتعلقة بديون سيقي التي خلفها دون علمنا...** » [64]. كما كان لايالة تونس ممثل لها في اسبانيا، وهو ايطالي يدعى **"لويس جيانو"** ويوجد مقره بآليكانتي:« **إن المكلف بشؤونكم بآليكانتي دون لويس جيانو بلغنا...** » [65].

والجدير بالذكر في شأن العلاقات الدبلوماسية مسألة افتداء الأسرى حيث قامت اسبانيا بافتداء العديد من أسراها في تونس ، فحدث أن قامت زوجة الملك "**دون كارلوس**" بنفسها بفدية الأسرى ، وما كان أمام الباي حمودة سوى تنفيذ طلبها. وهذا ما دفع الملك

إلى كتابة رسالة شكر وعرفان لقبول الباي طلب زوجته ، وهذا ملخص ما جاء فيها:« ... **لقد أعلمنا قنصلنا بأنه برجاء من الملكة زوجتي قد عفوتم عن عدة مساجين، إن هذه المبادرة تركت في نفسي أبلغ الأثر و أكدت لي بوضوح مرونة سياستكم.** » [66].

ج-2- العلاقات التجارية:

كان للمعاهدة الودية التي أبرمت بين حكومة اسبانيا وإيالة تونس سنة 1791م دور كبير في تزايد النشاط التجاري بين الطرفين[67]، والدليل على تزايد النشاط التجاري ذلك التقرير الذي أرسله قنصل بريطانيا "**ماجرا** "**Magra** " إلى حكومته يُؤكد فيه أنه في مدة شهر واحد دخلت إلى موانئ تونس 31 سفينة اسبانية لنقل الحبوب التونسية[68].

وقد أدّت العلاقات الودية التي كانت بين البلدين إلى تشجيع التجارة فقد كانت هناك صادرات وواردات متبادلة منها الصبغ القرميزي والصوف التي تجلب من اسبانيا لصنع الشاشية [69]. كما كانت ايالة تونس تشتري من اسبانيا العتاد الحربي، فقد طلب الباي من ملك اسبانيا أن تُصنع له مراكب حربية، يتم تسليمها إلى البحرية التونسية [70].

خاتمة :

بعد العرض المختصر لجوانب من العلاقات التجارية و الديبلوماسية التي كانت تجمع ايالة تونس وبعض الدول الاوربية في عهد الباي حمودة باشا (1782 – 1814م) . استطعنا الوصول إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

- استطاع الباي أن يفرض مكانة ووجود الإيالة حيث لم يكن بالسهل شراء الصلح من الإيالة إلا بعد دفع ضرائب باهظة .
- كان طبع الباي المتسم بالعناد قد جلب للإيالة مصاعب كثيرة. فعلاقاتها مع اسبانيا كادت أن تنتهي بقطيعة أما فرنسا فكانت تكثر من الشكاوي بسبب مطالب الباي القاسية. أما بالنسبة لانجلترا فكانت تغضب غيرة من التنازلات التي تحصلت عليها فرنسا من طرف الباي.

- استطاع حمودة باشا أن يفرض كلمته ومكانته في الساحة الدولية بالرغم من الحروب الخارجية .

- عرف حمودة باشـا كيف يسـتغل الظروف السـياسـية و الاقتصـادية في أوربا لتنشيط القرصنة و التجارة الخارجية.
- كان يسـعى الباي حمودة باشـا من خلال علاقاته التجارية الخارجية تحقيق مصالح تونس التجارية و تقويتها قبل أي اعتبار آخر.
- كان لإيالة تونس في عهد حمودة باشـا علاقات ودّ و صـداقة زادت متانتها من خلال السـفارات البعثات الدبلوماسـية. وهذا أمر يعكس لنا نجاح حمودة باشـا في علاقاته الخارجية هذا من جهة و من جهة ثانية دليل على المكانة التي تتمتع بها تونس الدول الأجنبية في ذلك الوقت.

الهوامش :

1. - Eugéne Plantet, **correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour 1577-1830**, ,Alcane, Paris,1899 ,T3, p 258 .

2. - تنحدر أصـول مصـطفى خوجة من بلاد القرج، جيء به صـغيرا إلى علي باشـا من العاصـمة العثمانية إسـتانبول حوالي عام 1730م ، ثم بعد زوال دولته وعودة أبناء حسـين بن علي إلى الحكم عام 1756، أقام بالمدرسة الباشية التي أنشأها "علي باشا" قرب جامع الزيتونة بتونس، وخصصها لطلبة المذهب الحنفي، وتعلم في هذه الفترة مبادئ العلوم ويقول ابن أبي الضياف في هذا الوزير: « **كان خيّرا عفيفا، متأنيا في موضع التأني، قوي الفكر، سليم الصدر،مأمون الغيبة، منصـفا من نفسـه، متواضـعا وفيّ العهد، مقتصـدا بعيدا عن السـرف...** » ، توفي عصر يوم الجمعة(22 جمادى الأولى1215هـ/10 أكتوبر 1800م).

انظر: احمد ابن أبي الضـياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان**، مراجعة و تعاريف أحمد الطويلي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976م، ج7، ص ص 39،38.

3. - يُكنى بأبي المحاسن أصله من البغدان ، جلب صغيرا من موطنه إلى إستانبول وهناك اشتراه بكار الجلولي قايد صفاقس وجلبه معه إلى تونس ليعيش في عائلة الجلولي، وتعلم اللغة العربية وأخلاق أهل البلاد وعاداتهم، ثم في عام 1781م وهبه صاحبه إلى الباي حمودة باشا. للتفاصيل اكثر حول هذه الشخصية انظر :

S. Zmerli, « **Une fugure oubliée :Youssef saheb Et-Tabaà** »,**R.Tunisienne**,n°21,1935, P P 37,38.

4. - الفونص روسو، **الحوليات التونسية من من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر** ، نقلها عن الفرنسية و نقحها و حققها وضبطها بأمهات المصادر التونسية و قدم لها بدراسة نقدية الدكتور محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ، تونس، 1992م ، ط1 ، ص 240.

5. - نفسه ، ص ص 262- 267 .
6. - للاطلاع على نماذج من تلك المراسلات انظر: : Plantet, op.cité , p p255- 260.
7. - Ibidem, p139.
8. - يمكن الإطلاع على نص الاتفاقية كاملا بالرجوع إلى: Idem , p254.
9. - ابن أبي الضياف، مرجع سابق، ج3، ص 45 .
10. - محمد بيرم الخامس التونسي، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار** ، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ النشر، مج2 ، ص 136.
11. - Robert Montran, **I.nventaires documents d'archives Turcs du Dar El Bey Tunis**, P,U,f, Pais, 1961 ,p 34
12. - ابن أبي الضياف ، مصدر سابق ، ص 46.
13. - روسو ، مرجع سابق ، ص 273 .
14. - نشب خلاف بين القنصل ديفواز"DEVOIZE "ومبعوث الحكومة الفرنسية هيركوليس"Huculais"المكلف بمراقبة القناصل في الإيالات المغاربية والذي اتهم ديفواز" DEVOIZE" بأنه معادي للجمهورية وأنه موالي للملكيين . أنظر: روسو، مرجع سابق، ص 266.
15. - رسالة من حمودة باشا إلى الحكومة الفرنسية، بتاريخ شهر ديسمبر 1796م .أنظر: Plantet, op.cit , p p 308-309 .
16. - بيرم الخامس، مصدر سابق ، ص 136.
17. - مصدر سابق ، ص 46 .
18. **دفترخط همايون** ، رقم 14081، تاريخ 1216 هـ / 1802م،علبة21، تعريب فكري طونا، جمع وترتيب أحمد توفيق المدني، الأرشيف الوطني الجزائري .
19. - وقع انقلاب بفرنسا سنة 1791م حيث تم إسقاط النظام الملكي والإعلان عن قيام النظام الجمهوري، وقد قامت فرنسا بإرسال مبعوثا إلى الباي حمودة للاعتراف بالعلم الجديد لكن الباي لم يعطي قراره في القضية وطلب أن تمهل له فترة زمنية حتى يرى موقف الجزائر مبررا ذلك بتحاشي هجوم الجزائريين على السفن الفرنسية في ايالته لكن الواقع هو عدم قدرته في البث في أمر يتعلق بالقانون الدولي الذي من شأنه أن يعكر العلاقات بينه و بين الجزائر. أنظر: روسو، مرجع سابق، ص 263.
20. - نفسه، ص 269.
21. - شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، النشرة الثالثة، الدار التونسية للنشر،تونس،1978م، ص 384 .
22. - نفسه .
23. - روسو، مرجع سابق ، ص 239.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

24. - J.J Marcel , **Discription de cette régence par le Dr Louis Frank** ,ED Bouslama, Tunis,san date , p 83.
25. - لوسات فلنزي ، **المغرب العربي قبل احتلال الجزائر(1790-1830م)**،نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر،تونس،1946م ، ص91.
26. - Venture de Paradis, **Tunis et Alger au XVIII** , Ed Sandibad, Paris,1983 , p 102 .
27. - جوليان، مرجع سابق ، ص384.
28. - رسالة من القنصل "دي شاتونيف"DE CHATAUNEUF " إلى حكومته: بتاريخ شهر جانفي 1788م. أنظر:

173. -Plantet, op.cit,T3 , p p172

29. - تم رصد الإحصائيات من خلال ما قدمه "بول ماسون" Paul Masson" في دراسته ، أنظر: **établissements et du commerce Français dans L'Afrique** Paul Masson, **Histoire barbaresque (1560-1793)Algerie,Tunisie,Tripolitaine, Maroc**,Libr Not 2 p601, Not 1 p599. Hachette,Paris,1903.
30. - الإمام، « **سياسة حمودة باشا في المجال التجاري** » ، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد2، جويلية 1974م ، ص 77.
31. - Plantet, op.cit ,p 305.
32. - هي معاهدة وُقعت بين فرنسا وبريطانيا وايرلندا وهي بمثابة معاهدة سلام نهائية بينهم. أما تسميتها آميان فراجع إلى المدينة الفرنسية آميان التي تقع في شمال فرنسا بالقرب من نهر السوم.
33. - الإمام ، مرجع سابق ، ص 77.
34. -Daniel Panzac,**Les corsaires barbaresques,la fin d'une épopée(1800-1820)**,Ed Méditeranée,France,1999 ,p122.
35. - Idem .
36. - Plantet ,op.cit,T2,p971./ Masson , op.cit , Note1. p509.
37. - رسالة من القنصل ماجرا **"MAGRA"** إلى حكومته بتاريخ 30 أوت 1800م. انظر : رشاد الامام ، **سياسة حمودة باشا في تونس(1782-1814م)**، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1979م ، ص 145.
38. - M. Thomas Maggill , **Nouveau voyage à Tunis**, traduit de l'anglais avec des notes par M .Ragueneau de la Chesnaye, Paris, 1815 , p 133 .
39. - Plantet , op.cit, p p 493-494.
40. - الإمام، « **سياسة حمودة باشا التجارية**... » ، مرجع سابق، ص 77.
41. - نفسه .

42. - نفسه ، ص 78.

43. - Panzac, op.cit , p p 153-154.

44. - للتطلع أكثر على المنتجات التي تستوردها الإيالة من بريطانيا ، يمكن الرجوع إلى:
p 187-188,194-195,199. Maggil, op.cit ,p

45. - Khalifa Chatter, **Dépendance et mutations précoloniales la régence de Tunis (1815-1857),**P. U. T, 1984 , p p 37 , 38 .

46. - نور الدين الحلاوي ،« **وثائق عن العلاقات بين تونس واسبانيا في أوائل القرن التاسع عشر** » ، **م،ت، مغ** ، عدد 15-16، جويلية 1979م، ص 87.

47. - يحي بوعزيز، « **إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس** » ، **م.د.ت** ، عدد 4، 1988م، ص 53- 54 .

48. - نفسه،ص 53.

49. - نفسه، ص 54.

50. - عمار بن خروف ، **علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات (1971- 1830م)** ، اطروحة لنيل درجة الدوكتوراه في التاريخ الحديث ، جامعة دمشق ، 1996م ، ص391.

51. - يحي بوعزيز، **المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد (1780-1798)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص60.

52. -Chakib Benafri, **Las Relacioes Entre Espana, El Jmperio Otomano y Las Regencias Berberisccas En el Siglo XVIII (1759- 1792),**cataedràtico de histoiria moderna universidad complutense de madrid 1994, pp 598- 601.

53. - روسو،مرجع سابق، ص 288.

54. - LothGaston, « **Arnoldo Soler chargé d'affaires d'espagne a Tunis et sa correspondance 1808-1810** »,**R.T**,N°12 ,1905, p p 306-308.

55. - رسالة من أرنولدو سولار إلى رئيس اللجنة العليا بإسبانيا، بتاريخ 9 سبتمبر 1808م.
أنظر: Idem, p 306.
للإشارة هنا نذكر أن الشكاوي التي كان يقدمها حمودة باشا إلى القنصل سولار
" Arnoldo Soler" كانت عن طريق سليمان ململي . أنظر: نفسه .

56. - رسالة من ملك إسبانيا دون فرناند السابع إلى الباي حمودة باشا بتاريخ 13 سبتمبر 1810م. انظر: الحلاوي ، مرجع سابق ، ص 95- 96.

57. - رسالة من أرنولدو سولار "Arnoldo Soler " إلى دون أرلوندو سيفالوس، بتاريخ 18 ماي 1808م.أنظر: Soler, op.cit N°12,p 305.

58. - قام الأستاذ بنشر 16 رسالة موجهة من ملوك إسبانيا إلى بايات تونس في الفترة الممتدة بين (1792- 1838م) ، والرسائل متواجدة في الخزينة العامة للحكومة التونسية.

ISSN : 2353-0472
EISSN : 2600-6405

أنظر: الحلاوي، مرجع سابق ، ص 87 .

59. - رسالة من ملك إسبانيا دون كارلوس إلى الباي حمودة باشا، بتاريخ 1 أكتوبر 1792م.

انظر : نفسه، ص 91.

60. - نفسه .

61. - رسالة من ملك اسبانيا دون كارلوس إلى الباي حمودة باشا، بتاريخ 18 أكتوبر 1801م.

انظر: نفسه، ص ص 93 ، 94 .

62. - رسالة من ملك اسبانيا دون كارلوس إلى الباي حمودة باشا، بتاريخ 15 أكتوبر 1802م.

انظر : نفسه، ص 95.

63. - روسو، مرجع سابق، ص 271.

64. - رسالة من الملك دون فيرناند إلى الباي حمودة باشا، بتاريخ 13 سبتمبر 1810م .

انظر: الحلاوي، مرجع سابق، ص 96.

65. - نفسه، ص 95.

66. - رسالة من الملك دون كارلوس إلى الباي حمودة باشا، بتاريخ 20 فيفري 1798م .

انظر : نفسه ، ص 92.

67. - 96Maggil, op.cit , p 1 .

68. - الإمام،« **سياسة حمودة باشا التجارية**... » ، مرجع سابق ، ص 79.

69. - نفسه .

70. - نفسه، ص 92.